مكتبات بغداد
وموقف المغول منها

بقلم
الدكتور محمد صالح محيي الدين
أستاذ التاريخ الإسلامي المساعد
بكلية العلوم الاجتماعية

مقدمة عامة

لاشك أن المكتبات ـماكان عاماً منها وماكان خاصاًـتمثل حجر الزاوية لكل معرفة؛ ولقد كانت في الماضى إحدى الطرق الهامة في نشر العلم وإذاعته بين الناس؛ ومن ثم بدأ الخلفاء منذ وقت مبكر ينشئون المكتبات، و يفتحون أبوابها للجميع على غرار مافعل العباسيون في بغداد حين أنشأوا«بيت الحكمة» وغيره، كمكتبات دار الخلافة وما إليها.

وعندما ظهرت المدارس في القرن الرابع الهجرى زود كثير منها بمكتبات عامره، واتخذت بعض مكتبات الربط أمكنة للنقد والمناقشة والتقويم على نحو مادار بين الوجيه النحوى وبين ابن هبة الله خازن مكتبة رباط المأمونية حين دار نقاش طريف حول قيمة كتاب أبى العلاء المعرى:«الفصول والغايات في معارضة السور والآيات»، واعتبر هذا الحوار الدكتور مصطفى جواد نوعا من المحاضرات، ونموذجاً لبعض ماكان يجرى في مكتبات بغداد.

وعلى هذا أصبحت المكتبات في العصر الذى أتحدث عنه تقوم بمهمة المعاهد العلمية التى تضطلع بها في العصر الحديث، علاوة على ماتؤديه دور الكتب في وقتنا الحاضر من خدمات.

ولم يقتصر الاهتمام بالمكتبات على الخلفاء وحدهم، متمثلا فيما أنشأه من مكتبات في دار الخلافة وفي المساجد والربط والمدارس، بل تجاوزهم إلى الكتاب والأدباء والشعر، فنشأت مكتبات خاصة كثيره لايأتى عليها العد أو ينالها الحصر؛ ونكتفى ـفي هذا الصددـ بإيراد نص واحد يمثل اهتمام الأفراد بالمكتبات، إدراكا منهم لرسالتها السامية في تنوير العقول.

حدث مسكويه فقال«هجم الجنود الخراسانية على دار ابن العميد بعد أن انتصروا على غلمانه وحراسه، وفر ابن العميد الى دار الإماره، تاركاً لهم داره وما فيها. فلما جاء الليل وانصرف الجنود الخراسانيه عاد ابن العميد إلى داره فوجد أن اصطبلاته وخزائنه جميعاً قد نهبت حتى أنه لم يجد في منزله مايجلس عليه، ولا كوزاً واحداً يشرب فيه ماء.... واشتغل قلبه بدفاتره، ولم يكن شيئٌ أعزُّ عليه منها، وكانت كثيرة تشمل جميع العلوم،... فلما رأى ابن العميد مسكويه خازن كتبه سأله عنها فأجاب: هى بحالها لم تمسها يد. فسرى عن ابن العميد، وقال لخازنه:«أشهد أنك ميمون النقيبه. أما سائر الخزائن فيوجد عنها عوض، وهذه الخزانة هى التى لاعوض لها...»(١).

---

(١) تجارب الأمم ٦:٢٢٤-٢٢٥ .

ومن هنا جاء اهتمام المؤرخين وتعظيمهم للمكتبات، ورأيناهم يولونها اهتماماً عظيماً وعناية فائقة حين يتحدثون عن غزو المغول لبغداد، ولعلّ هذا الإجلال والإكبار كان أحد الأسباب التى دفعت المؤرخين للمبالغة والتهويل في وصف ما أصاب المكتبات من دمار على يد المغول. وعلى الصفحات التاليه من هذا البحث حاولت أن أستكشف وجه الحق في هذا الموضوع، وسلكت-في سبيل تحقيق هذه الغاية-طريقاً يتمثل في تتبع المكتبات الخاصة التى نشأت على عهد العباسيين واستمرت حتى سقوط بغداد، لأرى مدى الأثر الذى أصابها من هذا السقوط. وقد أفردت لذلك القسم الأول من هذا البحث، وقسمته إلى نقطتين: تبحث الأولى مكتبات الدار الخليفيه باعتبارها مكتبة واحدة بدأت بأبى جعفر المنصور وانتهت بالمستعصم بالله. وتبحث النقطة الثانية من هذا القسم مكتبات الأشخاص.

أما القسم الثانى من هذا البحث فقد وقفته على المكتبات العامة المتمثلة في مكتبات المساجد والمدارس والربط.

على أننى حرصتُ-في ذلك كله-على ألاّ أعرضَ في بحثى إلاّ لما كان قائما بالفعل من المكتبات وقت غزو المغول الإلخانيين لبغداد. وبالله التوفيق،،

القسم الأول : المكتبات الخاصة

أ/: مكتبة دار الخلافة منذ نشأتها حتى سقوط بغداد:

بنيت منهجي-الذى اقتضانى أن أبدأ الحديث- في هذا البحث-عن المكتبات الخاصة-على اعتبار أن هذه المكتبات كانت أسبق من غيرها في الوجود، وأقدم من سواها في الظهور. وذلك بعد أن أمضيتُ وقتاً ليس بالقصير أفاضل بين هذ الاعتبار وبين اعتبار آخر هو: مدى النفع الذى تقدمه كلٌّ من المكتبات الخاصة والعامة للجمهور.

والمكتبات الخاصة-في العموم-أنشأها أصحابها من علماء وأدباء ومثقفين للاستعمال الخاص، إلا أنه-فيما يتعلق بمكتبات دار الخلافة-تُوسع فيها فأصبحت شبيهة بالمكتبات العامة من بعض الوجوه.

والمكتبات الخاصة كانت من الكثرة بحيث يتعذر احصاؤها، فما يكاد يوجد أديب أو شاعر أو عالم دون أن تكون له مكتبة عامرة غاصة بأنواع المجلدات. على أننا لن نتناول-بالطبع-في هذا القسم إلاَّ تلك التى بقيتْ عامرة حتى دهم المغول بغداد- كما أشرنا سلفاً-، وذلك لتتسنى لنا معرفة مقدار ماأتلفه الغزو المغولى من هذه المكتبات. وانطلاقاً من هذا المفهوم سنتتبع مكتبة دار الخلافة منذ نشأتها حتى سقوط بغداد، باعتبارها مكتبة واحدة يرثها خالفٌ عن سالف، ويعمل لتغذيتها وتزويدها بما استجد من فنون الآداب والعلوم.

والحق أن خلفاء بنى العباس كانوا«من أكبر المشجعين على ارتياد مناهل العلم والإقبال عليه، وقد بذلوا في سبيل ذلك المبالغ الطائله... ولم يكن قصر الخليفة إلاَّ منتدى يتبارى فيه الشعراء والأدباء والعلماء... ولقد كان الخلفاء يُعنون بتعليم أولادهم، فنشأ بعضهم وهو مسلح بسلاح العلم، راغب فيه، مشجع عليْه. ومن أقوى الأدلة على الرغبة في العلم إنشاؤهم خزائن كتب في دار الخلافة. وليس من شك في أن الخلفاء كانوا يتوارثون الكتب بالرغم مما كان يُصيبهامن الرزايا بسبب الفتن والأحداث السياسية. فخزانة الخلفاء كانت-في الحقيقة-تجمع أنفس الكتب وأثمنها، ولم يكن كتاب يعز عليهم إحرازه..»(١).

(١) كوركيس عواد : خزائن الكتب القديمة في العراق ص ١٠١ .

والغاية من تأسيس هذه المكتبات-بالإضافة إلى رغبة الخلفاء في الأخذ بأساليب العلم-تعظيم العلم-،وحث الناس على الاحتفال به، وتسهيل مهمة العلماء الباحثين بجلب المخطوطات النادرة لهم. وقد روى أن الخليفة العباسى الناصر لدين الله كان قد«اعتمد على مبشر بن أحمد«٥٣٠-٥٨٩» أحد كبار الأدباء في اختيار الكتب لخزائن الدار الخليفية لعاصمة المملكة»(١). وقد بلغت عناية خلفاء بنى العباس بالمكتبات حدًا حمل القلقشندى على القول:«و يقال إن أعظم خزائن الكتب في الإسلام ثلاث خزائن: إحداها خزانة الخلفاء العباسيين ببغداد، فكان فيها من الكتب مالا يحصى كثرة، ولا يقَوَّم عَلَيْه نفاسة..»(٢).

غير أننا لانعدم من الخلفاء من تنحط عنده قيمة الكتب، فتصبح وسيلة للهو، وتغدو مطالعتها عوناً على قتل الوقت الذى هو الحياة، في وقت يدرك فيه وز يره خطر الكتب النافعة فيحجبها عنه، و يقدم له مايريد من المسليات. أورد صاحب الفخرى:«طلب المكتفى من وز يره كتباً يلهو بها، و يقطع بمطالعتها زمانه، فتقدم الوز ير إلى النواب بتحصيل ذلك، وعرْضه عليه قبل حمله إلى الخليفة، فحصلوا شيئاً من كتب التاريخ، وفيها شيئ مما جرى في الأيام السالفة من وقائع الملوك، وأخبار الوزراء، ومعرفة التحيل في استخراج الأموال. فلما رآه الوز ير قال لنوابه : والله إنكم أشدُّ الناس عداوة لى، أنا قلت لكم حصلوا له كتباً يلهو بها، و يشتغل بها عنّى وعن غيرى، فقد حصلتم له مايُعرفه خراب البلاد من عمارتها. ردوها وحصلوا له كتباً فيها حكايات تُلهيه، وأشعار تطر به..»(٣)

وأول من فطن إلى ضرورة إلحاق مكتبة بقصر الخلافة-فيا أعلم-المؤسس الحقيق للدولة العباسية أبو جعفر المنصور(١٣٦-١٥٨هـ)، فقد ذكر الخطيب البغدادى في ترجمة محمد بن إسحق صاحب السيره المتوفى في أواسط المائة الثانية للهجرة أنه دخل على المنصور[بعد أن صحح الخطيب النص] يوماً وبين يديه ابنه المهدى، فقال المنصور: أتعرف هذا ياابن اسحاق؟ قال هو ابن أمير المؤمنين. قال اذهب فألف له كتاباً يؤرخ للدنيا منذ خلف الله آدم إلى يومك هذا. فلما ألف ابن إسحاق كتاب السيرة وعاد به قال المنصور؛ هذا كبير اختصره، فذهب فاختصره وهو المتداول بين الناس، أما أصله-وهو الكتاب الطو يل- فقد جُعل في خزانة أمير المؤمنين(٤).

---

(١) فيليب طرازى: خزائن الكتب العربية فى الخافقين ص ١٠٤ .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١ ص ٤٦٦ .

(٣) ابن الطقطقى : الفخرى فى الآداب السلطانية ص ٥ .

(٤) الخطيب البغدادى ـ تاريخ بغداد جـ ١ ص ٢٢٠-٢٢١ .

فعلى هذا الذى رجحه الخطيب من أن المنصور هو الذى أمر ابن إسحاق يبدو أن المنصور-كما قلنا-هو أول من أنشأ من خلفاء بنى العباس مكتبة في دار الخلافة. ويؤيدنا في هذا ماذكره صاحب «خزائن الكتب القديمة في العراق» حين قال مامعناه: ورد أن جورجيس بن بختيشوع (ت ١٥٢هـ ٧٦٩م) نقل للمنصور كتباً كثيرة من كتب اليونان إلى العربى، «ولا شك في أن النسخ الأم لهذه الكتب المنقولة له كانت تحفظ في خزانة المنصور..»(١). وهكذا وضع أبو جعفر المنصور حجر الأساس لمكتبة دار الخلافة التى ظلت قائمة منذئذ حتى سقوط الدولة العباسية على أيدى المغول.

أما مكتبة دار الخلافة في عهد المهدى، وجهوده في ترقيتها وتنميتها فيشير إليها فيليب طرازى حين يقول: «أول من ورد ذكره في التاريخ من الخلفاء العباسيين أنه عنى بجمع الكتب هو محمد المهدى (١٥٨-١٦٩هـ) والد هارون الرشيد (١٧٠-١٩٣هـ)، فإنه ورث دفاتر علم أوصى له بها أبوه الخليفة أبو جعفر المنصور (١٣٦-١٥٨هـ) عند وفاته، وكان شديد الحرص عليها.»(٢).

ويؤيد عناية المهدى بجمع الكتب ماأثبته المؤرخ ميخائيل الكبير البطريرك السريانى (١١٦٧-١٢٠٠م) قال: «ذكر المؤرخ داود الشرق أنه عثر في الكتب التى جمعها الخليفة المهدى ونقلها إلى بغداد على الخبر التالى وهو: «لما خرج يوحنا فم الذهب الى المنفى نقش على كنيسة أنسطاسيا في القسطنطينية قوله: إنى تركت للكنيسة ثمانمائة مجلد من الشروح والميامر والتراجم، والكتابات التى أنعم الله تعالى بها علىّ»(٣).

يرشدنا هذا النص إلى جملة من الأخبار، أولها: أن المهدى هو أول من ورد ذكره من الخلفاء العباسيين مقترناً بالكتب. ونحن نختلف مع صاحب النص في هذا، فقد سبق أن أوردنا نصًا للخطيب البغدادى -وهو أقدم- يذكر فيه أن لأبى جعفر المنصور خزانة كتب، وضع فيها أصل السيرة لابن إسحاق.

ثانيها: أن المنصور عند وفاته أوصى لابنه محمد المهدى بدفاتر علم كان شديد الحرص عليها، مما يتناقض مع أول النص، ويدل-بالتالى-على أن لأبى جعفر المنصور مكتبة، بلغ من أهميتها أن أدخلها في وصيته.

---

(١) هو: كوركيس عواد ص ١٠٣ — ١٠٤.

(٢) خزائن الكتب العربية في الخافقين جـ ١ ص ١٩٩.

(٣) نفس المرجع والجزء والصفحة، نقل هذا النص عن تاريخ الأزمنة-لمؤلفه ميخائيل الكبير، ولقد بحثت عن هذا الكتاب طويلا فلم أعثر عليه.

ثالثها: ماأثبته ميخائيل الكبير من أنه وجد خبراً في الكتب التى جمعها الخليفة المهدى ونقلها إلى بغداد، مما يدل على أن الجمع من القسطنطينية والنقل إلى بغداد بدأ من زمن المهدى.

رابعها: إثبات ماذكرناه في مستهل هذ البحث من أن خزائن دار الخلافة كانت تُتوارث من خليفة سابق لخليفة لاحق.

فإذا تجاوزنا عهد المهدى لننظر إلى مكتبة الدار الخليفة في عهد ابنه الرشيد ألفينا إشكالاً تاريخياً يكتنفه كثير من الغموض، فخزانة«بيت الحكمة» التى تنسب إلى الرشيد ثم المأمون أهى امتداد لمكتبة الدار الخليفية؟ أم هى كيانٌ مستقل عن تلك المكتبه؟ أما المصادر الأواية وشبهها فإنها لاتجيبنا على هذا السؤال؛ وتختلف في جوابه المصادر الثانوية؛ فبينما يرى فيليب طرازى أن مكتبة بيت الحكمة غير خزانة الدار الخليفية، وذلك عند حديثه عن موقف هولاكو من المكتبات إذ يقول:«فإنه أباد مكتبات هذه المدينة... كمكتبة بيت الحكمة، ومكتبة المدرسة النظاميه، ومكتبة المدرسة المستنصرية، وخزانة الدار الخليفية...»(١). يرى الأستاذ أحمد أمين(٢). والدكتور أحمد شلبي(٣)، والأستاذ كوركيس عواد(٤). أن لافرق بين بيْت الحكمة وبين مكتبة دار الخلافة؛ فالأستاذ عواد يشير إليها كمكتبة للرشيد والمأمون باعتبارهما خليفتين ورثاها عمن سبقها؛ والأستاذ أحمد أمين يقول إنها ملحقة بدار الخلافة لا في مكان خارجى ، ويستدل على ذلك بخطط بغداد التى لم تذكر خبراً عن بناء خاص منفصل عن دار الخلافة لمكتبة بيت الحكمة، كما يستدل بنص ورد في دائرة المعارف الإسلامية.

أما الدكتور شلبى فيورد نصًا-عند حديثه عن مصير مكتبة بيْت الحكمه-ذكره القلقشندى عن تدمير خزانة كتب الدار الخليفية، مما يدل على أنه لايفرق بين دار الحكمة وبين مكتبة دار الخلافة.

على أن مكتبة بيْت الحكمة كانت قد اتخذت طابعاً مغايراً لما كانت عليه مكتبة الخلفاء التى سبقتها، فبينما كانت تلك مكتبة خاصة كانت بيْت الحكمه أقرب إلى المكتبات العامة

---

(١) خزائن الكتب العربية جـ ٣ ص ١٠٢٩.
(٢) ضحى الإسلام جـ ٢ ص ٦٤ ، ٦٥.
(٣) تاريخ التربية الإسلامية ص ١٥٠.
(٤) خزائن الكتب القديمة في العراق ص ١٠٥ .

منها إلى الخاصة، إذ أتيح لجميع طلاب العلم والمعرفة ارتيادها، والاغتراف من معينها الذى لاينضب؛ ومن هنا ـ فيا يظهر ـ جاء الالتباس آنف الذكر.

وتكاد تتفق النصوص التى بين أيدينا على أن بيت الحكمة إنما أنشأها هارون الرشيد(١٧٠-١٩٣هـ)، لكنها بلغت أوج عظمتها في عهد الخليفة المأمون(٢١٨هـ - ٨٣٣م) الذى امتاز على أكثر خلفاء بنى العباس بثقافته الواسعة وبمحبته العظيمة للعلم وذويه،

وأخذه بالنظر العقلى الخالص تعليلاً للأشياء، وكشفا لحقائقها، وبذلك استحق أن يدعوه بعضهم فيلسوفا. ولعل في الحوار الطريف التالى الذى جاء في رسائل البلغاء(١). مايُغنى عن كل قول في شغف المأمون بالعلم، وولعه بكل نادر من كتبه،وكان الحوار بين المأمون والحسن بن سهل، نجتزئ منه مايلى:«.. ثم قال[المأمون للحسن بن سهل] أىُّ كتب العجم أشرف؟ فذكرتُ كثيرا منها ثم قلتُ: كتاب«جاو يزان خرد» ياأمير المؤمنين، فدعا بفهرست كتبه وجعل يقلبه فلم ير لهذا الكتاب ذكراً، فقال: كيف يسقط ذكر هذا الكتاب عن الفهرست؟ فقلت: ياأمير المؤمنين هذا هو كتاب «ذوبان» وقد كتبتُ بعضه، قال :فأتنى به الساعة، فوجهت في حمله، فوافاه الرسول وقد نهض للصلاة، فلما رآنى مقبلاً والكتاب معى انحرف عن القبلة وأخذ يقرأ الكتاب، فلما فرغ من فصل قال: لاإله إلا الله ـ فلما طال ذلك قلت: ياأمير المؤمنين : الصلاة تفوت وهذا لايفوت. قال صدقت ولكن أخاف السهو في صلاتى لاشتغال قلبى به، ثم صلّى وعاود قراءته، ثم قال أين تمامه؟ قلتُ لم يدفعه إلىّ، فقال: لولا أن العهد حبلٌ طرفه بيد الله وطرفه الآخر بيدى لأخذته منه، فهذا والله الحكمه، لا مانحن فيه من لىّ ألسنتنا في فجوات أشداقنا...».

ومن ثم كان حرص المأمون على أن تزود«دار الحكمة» بكل ماأنتجته القريحة الإنسانية في العالمين؛ ولهذا وجه نظره إلى خارج حدود بلاده، فراسل ملك قبرص يطلب منه أن يزوده بكتب أرسطو وغيرها من كتب اليونان، وها هو ملك قبرص يأخذ من بيتٍ كان مغلقاً فيرسل خمسة أحمال من الكتب بعد أن أقنعه الراهب الذى أذن بإرسالها بأنه سيثاب على ذلك، لأنها«مادخلت في ملة إلاّ وزلزلت قواعدها»!!(٢).

وها هو المأمون يوجه وفداً علمياً آخر إلى القسطنطينيه برئاسة أمين دار الحكمه«سلْم» وعضوية آخرين ليختاروا من خزانة الروم مايشتهون. ثم يُرسل وفوداً أخرى إلى«عمورية»

---

(١) اختيار وتصنيف: محمد كردى على ص ٤٧٩-٤٨٠.

(٢) القفطى تاريخ الحكماء ص ٢٩.

و«أنقرة» لجلب مافيها من كتب اليونان وغيرها، و يفعل مثل ذلك في فارس. وعندما تتجمع لديه أكداس ضخمة من الأسفار اليونانية والفارسية والآرامية والهندية والقبطية يسعى لإغراء ذوى اللسان، والعارفين باللغات، و يبذل لهم العطاء بغير حساب لينقلوا ماجمع إلى العربيه ومن أبرز هؤلاء حنين بن اسحق ومحمد بن موسى الخوارزمى وغيرهما.

وهكذ تجتمع في دار الحكمه مختلف الثقافات، فتصبح بذلك أعظم خزانة كتب في الإسلام على اختلاف عصوره ودوله، لاحتوائها على كل جليل ونفيس من الثاقافات الشرقيه والغربية المختلفة، بالاضافة إلى العربية. ومن ثم تتنوع الثقافة عند المسلمين وتتطور، وهكذا يحفظ المسلمون تراثاً عظيماً ضاعت أصوله بعدهم من أصحابها الأقدمين، وذلك بنقله إلى الأجيال التالية من الدارسين.(١)».

من هذا العرض السريع يتبين أن عهد المأمون كان أزهى عصور«بيت الحكمه»، فإذا مات قلت العناية به، والاهتمام بشأنه، لاسيا أن الخليفة المعتصم الذى جاء بعده كان قليل الثقافة، لذا لم«يهتم به بقدر اهتمامه بجلب المماليك، وسروره ببطولتهم، ثم هجر بسببهم بغداد إلى سامرا فزاد ذلك من إهمال«بيت الحكمه» وقلّل من شأنه، فخفت صوته وخبا ضوؤه، ولم يعد له ذكر وصيت كما كان الحال في عهد المأمون»(٢).

الخزانة في عهد المعتضد بالله:.

انتقلت خزانة كتب الدار الخليفية إلى الخليفة المعتضد بالله(٢٧٩-٢٨٩هـ)؛ و يُستفاد من المصادر التى بين أيدينا أن المعتضد عمل على تزو يد هذه المكتبه بما تيسر له من الكتب[على قدر أهل العلم تأتى المعارف]؛ فابن النديم يذكر في أخبار الزجاج النحوى(ت ٣١٠)أنه فسر كتاب«جامع النطق» وكتبه بخط الترمذى الصغير أبى الحسن، وجلده وحمله الوز ير القاسم بن عبيد الله إلى المعتضد، فاستحسنه، وأمر له بثلثمائة دينار،«ولم يخرج لما عمله الزجاج نسخة إلى أحد إلا إلى خزانة المعتضد...»(٣).

وذكر ابن أبى أصيبعه أن أحمد بن الطيب السرخسى صنّف جلة كتب للمعتضد منها:«اللهو والملاهى، ونزهة المفكر والساهى» وكتاب الطبيخ، وكتابٌ في أدب النفس.

---

(١) المصدر السابق ص ٣٠؛ وخزائن الكتب العربية ص ١٠٠-١٠١؛ وخزائن الكتب القديمة في العراق صفحات:١٠٥،١٠٦،١٠٩،١١٠؛ وتار يخ التربية الاسلامية١٣٦،١٤٨،١٤٩.

(٢) تار يخ التربية الإسلامية ص ١٠٥.

(٣) الفهرست ص ٩٠ ط مصر،ومعجم الأدباء لياقوت جـ ١ ص ٥٨.

وهذه الأسفار كانت جزءاً مما حوته خزانة كتبه. ومما حوته هذه الخزانة أيضا «جوابات عن مسائل» سأل عنها المعتضد طبيبه أبا الحسن ثابت بن قره، المتوفى سنة (٢٨٨هـ/٩٠٠م)(١).

هذا ولاتزال بعض الكتب التى كانت في خزانة المعتضد موجودة ضمن مجموع خطي في المتحف البريطانى، كرسالة الموسيقى التى ألفها يحى بن على المنجم (ت ٣٠٠هـ) للخليفة(٢).

المكتبة على عهد الراضى بالله:

أما الخليفة العباسى الراضى بالله(٣٢٢-٣٢٩هـ) فقد كان يختلف من حيث التكوين عن الخليفة الذى سبقه، والذى لم تذكر لنا المصادر عن مكتبة دار الخلافة في عهده شيئا ذا غناء، ذلك لأن الراضى، فيما تذكر مصادر هذه الفترة، كان أديباً معنياً بشئون الفكر والأدب، وكان الفضل في اتجاهه هذا يرجع بعد الله إلى مربيه « الصولى» الذى أوجده عنده وعند أخيه هارون هذه النزعة الثقافية، ومن ثم أخذ-قبل أن يصبح خليفة، يولى الكتاب عنايته، ويجلب منها مايغذى مكتبة دار الخلافة التى ورثها أبا عن جد. يقول الصولى: «فحببت العلم إليهما-الراضى وهارون-، واشتريت لهما من كتب الفقه والشعر واللغة والأخبار قطعة حسنة، فتنافسا في ذلك، وعمل كلٌ منهما خزانة لكتبه، وقرءا علىَّ الأخبار والأشعار..» وقال الصولى في موضع آخر في معرض حديثه عن شعر لنهشل ظنه في خزانة الراضى فلم يكن: «فقلت للخليفة: وهذا أيضا عجب، يتحدث الناس بأن سيدنا مع جلالة علمه، وعلو نعمته-عمل خزانة كتب كما عمل متقدمو الخلفاء، طلب فيها شعر هذا الشاعر المشهور فلم يوجد!؟»(٣). فكل هذا-لا شك-شاهد على استمرار خزانة الدار الخليفية، وتزويدها المستمر بكل ماهو جديد مفيد.

الخزانة في عهد القائم بالله:

مضى الخليفة العباسى القائم بأمر الله على سياسة من سبقوه في تزويد خزانة دار الخلافة بالمستظرف من التحف، والمستطرف من الكتب، واستأنف-فيما توحى به النصوص-سيرة أسلافه في الاتصال بملوك الروم. يرشدنا إلى ذلك ماأورده كوركيس عواد حين قال عن القائم بأمر الله: «هو الخليفة السابع والعشرون من خلفاء بنى العباس(٤٢٢-٤٦٧هـ)، وخزانة كتبه ورثها عمن سبقه من الخلفاء، وكان مما اشتملت عليه من الطرائف ماذكره أبو الفرج

---

(١) عيون الأنباء ١ - ٢١٥.

(٢) خزائن الكتب القديمة في العراق ص ١١٤.

(٣) أخبار الراضى بالله، والمتقى لله من كتاب الأوراق للصولى ص ٣٩-٤٠.

بن العبرى في تاريخه المدنى الآرامى، قال ماهذا تعريبه: «في سنة ٤٤٣ للهجرة وصل رسول من قسطنطين ملك الروم إلى القائم خليفة بغداد يحمل رسالة باليونانية، يتخلل أسطرها ترجمتها العربيه، مكتوبه بالذهب على قطيفه..»(١).

ومما اشتملت عليه خزانة القائم بأمر الله النسخة الأم من كتاب «رسوم دار الخلافة» لهلال بن المحسن الصابي المتوفى سنة٤٤٨هـ، فقد ذكر في مقدمته أن صنفه وأهداه إلى هذا الخليفة. وذكر هلال أيضا في مقدمة كتابه الذى صنَّفه في أخبار الوزراء أنه أهداه إلى الخليفة... فلعله أن يكون القائم بأمر الله، أو سلفه القادر بالله.(٢)

في عهد المقتدى بأمر الله:.

أما المكتبة الخليفية على عهد الخليفة المقتدى بأمر الله (٤٦٧-٤٨٧هـ) فلم تشهد تطوراً كبيراً على الرغم من طول عهد هذا الخليفة، إذ لم يصلنا من الأخبار مايستفاد منه أنه أمدها بجديد إلاّ أخباراً قصاراً، وهى تدل على أن هذه الكتب الجديدة أُلفت خصيصا للخليفة الذى زود بها المكتبه.

ومن ذلك كتاب «تقويم الأبدان في تدبير الإنسان» لأبى على يحي بن عيسى بن جزلة الطبيب البغدادى (ت ٤٩٣هـ)، وكتاب «منهاج البيان فيما يستعمله الإنسان» له أيضا، وكتاب «المغنى في الطب» لأبى الحسن سعيد بن هبة الله بن الحسين الطبيب، وكلها في خزانة دار الخلافة على عهده.(٣).

الخزانة على عهد الناصر لدين الله:.

من الحق أن نقول إن خزانة دار الخلافة لم تجد العناية الكافية في الفترة الواقعة بين نهاية عهد المأمون وبداية عهد الناصر لدين الله، إلاّ في فترات متقطعة قصيرة على يد بعض الخلفاء الأدباء.

أما الناصر لدين الله (٥٧٥-٦٢٢هـ)ــ وقد شهدت الخلافة في عهده مايمكن أن نسميه صحوة الموت ــ فقد نالت الخزانة الخليفية كغيرها من مرافق الدولة الأخرى-عنايته العظيمه، ورعايته الكاملة، حتى غدت مكتبة عامرة حافلة بالأسفار العظيمة، والتصانيف المعتبرة، وأقوى برهان على ضخامة محتوياتها ماكادت تجمع عليه مصادر عصره من أنه نقل من كتبها ماتألفت به مكتبات ثلاث عظام هى: خزانة دار المسناة ببغداد، وخزانة الرباط الخاتونى

(١) خزائن الكتب القديمة فى العراق ص ١١٧.

(٢) المصدر السابق ص ١١٨-١١٩.

(٣) نفس المرجع والصفحات

السلجوقي، ثم خزانة المدرسة النظامية. فقد جاء في ابن الأثير: «وفيها - سنة ٥٨٩هـ أمر الخليفة الناصر لدين الله بعمارة خزانة الكتب بالمدرسة النظامية ببغداد، ونقل إليها من الكتب النفيسة ألوفاً لايوجد مثلها»(١). وذكر القفطى في ترجمة أبي الرشيد الحاسب مبشر بن أحمد الملقب بالبرهان (ت ٥٨٩هـ/١١٩٣م) أنه «تميز في أيام الناصر لدين الله أبي العباس أحمد؛ وقرب منه، واعتمد في اختيار الكتب التي وقفها بالرباط الخاتوني السلجوقي، وبالمدرسة النظامية، وبدار المسناة. فإنه أدخله إلى خزائن الكتب بالدار الخليفية، وأفرده لاختيارها(٢).

مكتبة دار الخلافة على عهد المستنصر:

ليس من شك في أن المستنصر بالله (٦٢٣-٦٤٠هـ) قد ورث مكتبة ضخمة عن سلفه الناصر لدين الله؛ وإذا لم تكن لدينا نصوص عن رَفْدها من قبله بجديد فإن لدينا من قرائن الأحوال مايدل على ذلك، فصاحب «الحوادث الجامعة» يقول عن المدرسة المستنصرية: «ونقل في هذا اليوم-يوم افتتاحها-إلى المدرسة من الربعات الشريفة، والكتب النفيسة المحتوية على العلوم الدينية والأدبية ماحمله مائة وستون حمالاً، وجعلت في خزانة الكتب» (٣).

ويُعيّن الأستاذ عوّاد أن المستنصر هو الذى نقل إليها هذه الأحمال من مكتبته الخاصة، أى خزانة دار الخلافة(٤)، التى كان خازنها ولد المستنصر ضياء الدين أحمد(٥)، والقاضى أبو محمد عبد الله البادرائى؛ وإذا كان ابن كثير قد اكتفى بوصف هذه الكتب بأنه ليس لها في الدنيا نظير فإن ابن عنبة، والدكتور شلبى(٦)، يزيدانا تفصيلاً فيذكران أن مانقله المستنصر من دار الخلافة إلى مكتبة المستنصرية بلغ نحواً من ثمانين ألف مجلد. وينص شلبى على أن المستنصر كان يشترى لمكتبة دار الخلافة كل جديد تنتجه القريحة الإنسانية؛ إذ أن من ضمن مانقل من مكتبة الدار الخليفية كتاب «الياسة» الذى يحوى القواعد والعقوبات التى قررها جنكيز خان، وجعلها شريعة لقومه.

---

(١) الكامل في التاريخ جـ ١٢ ص ٤٣.
(٢) القفطى: أخبار الحكماء ص ٢٦٩.
(٣) الحوادث الجامعة ص ٥٤.
(٤) خزائن الكتب القديمة ص ١٦٣.
(٥) ابن الفوطى : الحوادث ص ٥٤ ، ١٤٧.
(٦) عمدة الطالب ص ١٩٥ ؛ تاريخ التربية الإسلامية ص ١٥٨.

فكل هذه النصوص شواهد دالة على أن مكتبة الدار الخليفية بلغت في عهد المستنصر مبلغاً عظيماً من الضخامة والسعة والتنوع، بحيث يؤخذ منها ثمانون ألف مجلد، وتظل-بعد ذلك-مكتبة محتاجة إلى خازن يُشرف عليها. وأحسب أن رجلاً بلغ من اهتمامه بالكتاب هذا المدى لابد أن يكون قد عمل-وبسرعة-على تعويض مكتبة دار الخلافة مانقل منها إلى المستنصرية.

مكتبة دار الخلافة على عهد المستعصم:

لاشك عندى أن الخليفة المستعصم بالله(٦٤٠-٦٥٦هـ) قتيل المغول كان من أعظم الخلفاء همة في رعاية العلوم، ولم شعثها، والولع باقتنائها، بغضّ النظر عن الدوافع الحقيقية لذلك، وما إذا كانت دوافعه التجمل بالعلم، والتزيىّ بزى أهله دون أن يكون منهم-كما أومأ إلى ذلك صاحب«الفخرى في الآداب السلطانية»(١)، أو دوافع نابعة عن حبّ للعلم وأهله، ورغبة حقيقية في الاستنارة بفيوضاته. دليلنا على ذلك ماتذكره المصادر من أنه أنشأ في السنة الثانية من خلافته مكتبة جديدة، غير تلك التى ورثها كابراً عن كابر-وما أضخمها من مكتبة!-، فقد أشار ابن الفوطى إلى مكتبة دار الخلافة القديمة في قوله:«وفي هذا اليوم-من سنة٦٤٠-تقدم الخليفة بإحضار شيخه العدل شمس الدين على بن النيار، فحضر عنده فأكرمه، وسلّم إليه خزانة الكتب التى لخاصته، «وأمره بالترداد والملازمة(٢).

وكان ذلك يوم مبايعة المستعصم بالخلافة. هذا ماكان من أمر عنايته بمكتبة أجداده. أما مكتبته الخاصة التى أنشأها فقد وردت إشارة ابن الفوطى إليها في قوله عن حوادث سنة ٦٤١هـ -وهى السنة الثانية من خلافته-«وفيها أمر الخليفة بعمل خزانة للكتب في داره، وكتب على جهاتها أشعاراً منها مانظمه صفى الدين عبد الله بن جميل متقدم شعراء الديوان(٣)»، ثم أورد أبياتاً. ولشد ماتباهى المستعصم بهذه المكتبة أمام الخاص والعام.

وأورد ابن شاكر الكتبي خبراً قال فيه: إنه لما وصلت الخلافة للمستعصم«عمر خزانة كتب، وأمر أن يختار لها كاتبان يكتبان مايختاره، ولم يكن في ذلك الوقت أفضل من الشيخ زكى الدين، وكنتُ دونه في الشهرة، فرتبنا على ذلك.»(٤).

---

(١) ابن طباطبا ص ٢٦٧.

(٢) الحوادث الجامعة ص ١٦٣.

(٣) المصدر السابق ص ١٨٤. وخزائن الكتب القديمة: ١٢٤، ١٢٥. وخزائن الكتب العربية جـ ١ ص ١٠٥.

(٤) فوات الوفيات جـ٢ ص ١٨. وانظر كذلك الفخرى ص ٢٦٧؛ وخزائن الكتب القديمة ١٢٢، ١٢٣.

وقد عيّن ابن عبد الحق مكان المكتبتين من دار الخلافة في قوله: «وهذه المنظرة ـ منظرة الريحانيين ـ أحدثها المستظهر بالله، وهى متصلة بالدار التى كان يسكنها الخليفة، ومن ورائها بستان كبير واسع، وفيه خزانتان متقابلتان للكتب، أنشأهما الإمام الشهيد المستعصم بالله من وراء المنظرة وهى بباب بدر»(١) الذى كان يسمى أولاً باب الخاصة.

. . . .

الآن وبعد أن قنا بمحاولة لرسم صورة نرجو أن تكون واضحة لما تجمع ـ عبر سنىّ الخلافة العباسية ـ في خزانة الدار الخليفية من كتب، هى عبارة عن جهود خلفاء بنى العباس في خدمة الحضارة الإنسانية؛ ورأينا أن محتويات هذه الخزانة الخليفية أصبحت تُعد بعشرات الآلاف من المجلدات ـ نريد أن نتبين المصير الذى انتهت إليه هذه الذخائر على يد المغول الإيلخانيين عندما سقطت الخلافة العباسية في أيديهم سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م).

هنا يأتى دور النصوص؛ والذى نعرفه منها يُوشك أن يُجمع على أمر واحد هو: أنّ بيت الحكمة ـ عند من يعتبرونه كياناً مستقلاً ـ، ومكتبة دار الخلافة التى تكونت على امتداد التاريخ العباسى إنما كان مصيرهما معاً الدمار والخراب: غرقاً أو حرقاً أو نقلاً؛ والاختلاف اليسير بين بعض هذه المصادر إنما هو في كمية هذا الذى استهدف للدمار والخراب. يقول ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ): «واستولوا ـ يقصد المغول ـ من قصور الخلافة وذخائرها على مالا يبلغه الوصف، ولايحصره الضبط والعدّ، وألقيت كتب العلم التى كانت بخزائنهم جميعاً في دجلة.

وكانت شيئاً لايعبر عنه، مقابلة ـ في زعمهم ـ بما فعله المسلمون لأول الفتح في كتب الفرس وعلومهم»(٢).

ويقول القلقشندى (ت ٨٢١هـ): «ويقال إن أعظم خزائن الكتب في الإسلام ثلاث خزائن: إحداها خزانة الخلفاء العباسيين ببغداد، فكان فيها من الكتب مالا يحصى كثرة، ولا يُقَوّم عَلِيّهُ نفاسة. ولم تزل على ذلك إلى أن دهمت التتر بغداد، وقتل ملكهم هولاكو المستعصم آخر خلفائهم ببغداد، فذهبت خزانة كتبهم فيا ذهب، وذهبت معالمها، وأعفيتْ آثارها»(٣).

---

(١) ابن عبد الحق الحنبلى: مراصد الإطلاع جـ ٣ ص ١٦٢.

(٢) تاريخ ابن خلدون جـ ٣ ص ١١٠٦.

(٣) صبح الأعشى جـ ١ ص ٤٦٦.

هذا ماكان من أمر المصادر التى تعتبر شبه أولية، وشبه معاصرة لأحداث بغداد. أما المؤرخون المحدثون فأسلوبهم في وصف هذه الحادثة كان أعنف. ومن أعدل هؤلاء كوركيس عواد الذى يقول:«ولقد انحل أمر هذه الخزائن بانحلال الخلافة، وتبعثرت كتبها؛ ولاشك أن مجيئ المغول إلى بغداد كان من أشد الضربات عليها، فبعضُها نُقل، وبعضها أُغرق»(١). ثم يستشهد بنص من ابن الساعى فيقول:«ذكر ابن الساعى أن المغول حين سقوط بغداد بيدهم سنة ٦٥٦هـ، بنوا اسطبلات الخيول، وطوالات المعالف بكتب العلماء عوضاً عن اللّبن..».

وتتمثل الإقليمية المشوبة بأقصى عواطف البغض للمغول في النص التالى، وهو نصٌ يلتق عنده-من حيث الأسلوب، والأخبار التى تضمنها-معظم المؤرخين المحدثين الذين وقفتُ لهم على نص؛ يقول الإستاذ فيليب:«تمادى هولاكو حفيد جنكيز خان التترى في العسف والتخريب والتدمير أثناء زحفه إلى بغداد وتدويخها، فلم يُبق فيها أثراً للمخطوطات القديمة، والذخائر الثمينة التى كانت مكنوزة منذ قرون في قصور الخلفاء، وبيوتات الأمراء. واقترف مثل تلك الفظائع في«دار الحكمة».... وفي غيرها من خزائن الكتب العامة والخاصة، فألقى بعضها في نهر دجلة، فسد مجراه، وجاز الناس على الكتب من جانب إلى جانب كأنها جسر معقود، وبعضها الآخر استنفد عزم النار الآكلة مدةً غير قصيرة من الزمن حتى قضت قضاءها فيه».

«ومن الكنوز الفاخرة التى أجهز عليها البرابرة في تلك الفاجعة الأليمة تحفُ الملوك وهداياهم ومراسلاتهم التى وجهوها إلى الخلفاء العباسيين ببغداد... ومن تلك التحف النفيسة ماأهداه الناصر صلاح الدين الأيوبى إلى الخليفة العباسى في بغداد، نذكر منها ٣٠٠ مجلد من الكتب البديعة النسخ؛ ذهبت فريسة فاجعة هولاكو البربرية..»(٢).

وينقل الأستاذ أحمد أمين عن دائرة المعارف الإسلامية قولها:«كانت أول مكتبة عامة هى مكتبة دار الحكمة التى أنشأها المأمون في بغداد، وجمع لها الكتب اليونانية من الأمبراطورية البيزنطية، وترجمت إلى العربية، وكانت المكتبة تحوى كل العلوم التى اشتغل بها-وقد ظلت إلى مجيئ التتار سنة ٦٥٦هـ..»(٣).

من هذا العرض يتبين أن هناك اتفاقاً بين المؤرخين القدماء والمحدثين الذين عثرنا لهم على نصوص على أن مكتبة دار الحكمة، ومكتبة الدار الخليفية قد ذهبتا فيما ذهب عند غزو

---

(١) خزائن الكتب القديمة في العراق ص ١٠٢.

(٢) خزائن الكتب العربية ١٠٧/١، ١٠٨؛ سليمان الصائغ تاريخ الموصل ١١٧/٢؛ شلبى التربية الإسلامية ١٠٥.

(٣) ضحى الإسلام جـ ٢ ص ٦٤ ، ٦٥.

المغول لبغداد. وحيث أن المكتبتين مرتبطتان-في وجودهما-بالخلفاء، وقد قضى المغول على الخلافة وورثوا ممتلكاتها فليس بوسع المرء-أو على الأقل وُسعى أنا-أمام هذا الوضع الشاذ إلاّ التسليم بما تقوله هذه المصادر-بعد تجريده مما لايقبله العقل من المبالغات-، إذ لاسبيل إلى إثبات ماينقضه، حيث أن الأثر الماديّ الوحيد الذى كان يمكن أن يقود إلى الحقيقة كاملة كان بيد المغول؛ وهو ذخائر دار الحكمة ومكتبة الدار الخليفية.

ب ـ مكتبات الأشخاص:

ومع الاقتناع العقلى البدهى بوجود مكتبات-في كل زمان ومكان-لأشخاص عُنوا بشؤون العقل والوجدان، أو العلم والأدب فإن من أصعب أمور التاريخ لهذه المكتبات الشخصية، ذلك لأن أخبارها في المصادر قليلة، إما لأن فائدتها مقصورةٌ على أصحابها لاتتجاوزهم إلى غيرهم إلاّ نادراً، ولهذا أهملها المؤرخون، أو لكون وجودها أمراً بديهياً لايحتاج إلى دليل أو برهان. وقد تتبعت المكتبات الشخصية في النصوص التى قُدر لى الاطلاع عليها، فألفيتها على ثلاثة أنواع: النوع الأكبر منها انتهى قبل سقوط بغداد وبهذا يخرج عن مدار بحثى. ومن أمثلته: مكتبة الصاحب بن عباد، وحنين بن إسحاق(ت ٢٦٤هـ)، ومكتبة أبى نصر سابور ابن أردشير(ت٤١٦هـ)، ومكتبة عبد الله بن أحمد الخشاب(ت ٥٦٧هـ)، وسعيد بن الدهان النحوى البغدادى(ت٥٦٩هـ)، وغيرهم.

وقسم ثان نشأ بعد سقوط بغداد، وبذلك يخرج أيضاً عن نطاق بحثى إذ لايخدم غايتنا في كشف دَوْر المغول في مصير المكتبات، ومن أمثلة ذلك: خزانة على بن الخضر الآمدى الحنبلى، ومكتبة ابن الثردة الواسطى البغدادى، ومكتبة ابن الفوطى(ت ٧٢٣هـ)، ومكتبة صفىّ الدين عبد المؤمن بن عبد الحق الحنبلى(ت ٧٣٩هـ) وغيرهم.

وقسم ثالث-ويبدأ في نهاية العصر العباسى، ويستمر أثناء عهد المغول الإيلخانيين-وهو الذى يعنينا من هذه الأقسام الثلاثة؛ ولكن بعد تأمل نصوصه وجدت هذا القسم من الضآلة بحيث أصبح من المتعذر أن يعطينا ما كنا نرجوه منه من فائدة. ومن مكتبات هذا القسم.

١-مكتبة رضى الدين بن طاووس:

ذكر الأستاذ عواد من أخبار هذه المكتبة وصاحبها مانصه:«وهو السيد الأجل رضى الدين على بن موسى بن جعفر بن محمد بن أحمد بن محمد الطاووس المولود سنة(٥٨٩/١١٩٣)، والمتوفى سنة(٦٦٤/١١٦٥)، ألّف كتباً عديدة بلغت نيفاً وثلاثين تصنيفاً، كانت له خزانة كتب احتوت سنة(٦٥٠هـ/١٢٥٢م) على ألف وخمسمائة كتاب،

وقد صرح رضى الدين في آخر كتاب«اليقين» من مؤلفاته أنه وقف جميع كتب خزانته على أولاده الذكور وقفاً صحيحا شرعياً على اختلاف الأعصار والدهور(١)..».

نستنتج من هذا النص عدة حقائق :

أولها: أن صاحب هذه المكتبة عالم حضر غزو بغداد، ولم يقتله المغول، ولا هرب من مدينته؛ ودليل علمه مؤلفاته.

ثانيها: أنه كانت له مكتبة بلغت ذروتها عند سقوط بغداد.

ثالثها: أن هذه المكتبة لم تمس بسوء، بدليل أنه وهبها قرب وفاته-لأولاده الذكور. فهذه إحدى المكتبات التى سلمت-وسلم صاحبها-من غزو المغول.

٢- مكتبة غياث الدين عبد الكريم بن أحمد بن موسى: طاووس المحدث النقيب المشهور:

جاء في سيرة صاحب هذه المكتبة أنه«جمع وصنف وشجر وألف»، وكان يشارك الناس في علومهم، وكانت داره مجمع الأئمة والأشراف». وكان أساس هذه المكتبة-فيما يبدو- كتباً أخذها من جده رضى الدين الذى أشرنا إليه آنفاً؛ أى أن نواة مكتبته كانت موجودة قبل دخول المغول بغداد بنحو عشرين عاماً[مولد صاحب هذه المكتبة سنة ٦٤٦هـ، ووفاته سنة ٦٩٣هـ]. وكان ابن الفوطى أحد الذين ألفوا لهذه المكتبه، ومن مؤلفاته لها:«كتاب الدر النظيم فيمن تسمى بعبد الكريم»(٢).

وما أبديناه من ملاحظات استنتاجيه على خزينة الكتب السابقه يمكن أن ينسحب على هذه دون اختلاف كبير.

٣ ـ مكتبة ابن العلقمى:

تنسب هذه المكتبة إلى وزير الخليفة العباسى المستعصم بالله، مؤيد الدين أبو طالب محمد بن أحمد بن العلقمى المتوفى سنة ٦٥٦هـ، وخبرها مبثوث في كثير من مصادر العهد الإيلخانى في العراق. وقد افتتحت هذه الخزانة التى حفلت بكثير من الكتب النافعة في شتى العلوم والفنون سنة(٦٤٤هـ/١٢٤٦م)، وأورد ابن كثير خبر افتتاحها في حوادث هذه السنة فقال:«فيها فتحت دار الكتب التى أنشأها الوزير مؤيد الدين محمد بن أحمد العلقمى بدار

(١) خزائن الكتب القديمة في العراق ص ٢٧٠.

(٢) نفس المصدر والصفحه.

الوزارة؛ وكانت في نهاية الحسن، ووضع فيها من الكتب النفيسة والنافعة شيئ كثير، وامتدحها الشعراء بأبيات وقصائد حساناً»(١)

أما محتويات هذه الخزانة من كتب فقد حدث عنها ابنه شرف الدين على، فيما رواه ابن طباطبا حين قال: «اشتملت خزانة والدى على عشرة آلاف مجلد من نفائس الكتب، وصنف الناس له الكتب، فمن صنّف له الصفانى اللغوى، صنف له «العباب»، وهو كتاب عظيم كبير في لغة العرب(٢).

وصنف له عز الدين عبد الحميد بن أبي الحديد كتاب «شرح نهج البلاغة»، يشتمل على عشرين مجلداً، فأثا بها، وأحسن جائزتها.»(٣) وذكر صاحب الفخرى أيضاً أن بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل أهداه هدية ثمينه قيمتها عشرة آلاف دينار، وكان مما اشتملت عليه-بالإضافة إلى الثياب واللطائف-جملة من الكتب الثمينه.(٤)

ومهما قيل في ابن العلقميّ وصلته بهولاكو فإن مكتبته- في تصورى-ماكانت لتَسلم -إبان الغزو المغولى لبغداد لو كانت هناك نيه,,مبيته,, لتدمير النتاج الفكرى، وللأخذ بالثأر مما فعله المسلمون بكتب الفرس عند الفتح العربى الأول. وما كانت لتسلم مكتبة ابن العلقمى من الخراب والدمار مرة أخرى-في اعتقادى-لو صح ماقيل من ردم دجلة بأكداس الكتب، حتى صارت معبراً للناس والدواب بين شرق بغداد وغربها، وحتى اسود النهر بمداد الكتب التى ألقيت فيه كما سبق أن أشرنا.

القسم الثانى: المكتبات العامة

يغلب-في الفترة التى أتحدث عنها-على المكتبات العامة أن تكون ملحقة بمسجد أو مدرسة أو رباط؛ وكثيرا ماكانت الأوقاف هى المصدر الأساسى في الإنفاق على هذه المكتبات، سواء أكان ذلك لترميم البناء، أو مد المكتبة بما تحتاجه من كتب جديده، أو دفع مرتبات الموظفين وما إلى ذلك، وكان المشرف على المكتبة-بهذا الصدد-يحصل ريع الوقف ويُنفقه على المصارف التى أشرنا إليها (٥). ذلك لأن شؤون التربية والتعليم والتثقيف، وما إليها من

---

(١) البداية والنهاية ١٣: ١٧٢.
(٢) الفخرى ص ٢٧٠ — ٢٧١ .
(٣) الفخرى في الآداب السلطانية ص ٢٧٠—٢٧١.
(٤) المصدر والصفحة.
(٥) تاريخ التربية الإسلامية ص ١٤٥.

الشؤون الاجتماعية العامة إلى ذلك الوقت ماكانت قد أصبحت بعدُ من أوجب واجبات الدولة على نحو مانراه اليوم، وإنما كانت تعتبر-إن أنجز الخليفة أو وزيره شيئا منها-من أفضال الحاكم ونعمه على أفراد رعيته.

واقدم المكتبات العامة-بالمعنى الذى قصدناه-نشأت في المساجد، إما كنواة لمعهد علميّ يستقبل الطلاب فيجدون فيه العلم والمعرفة، أو لتكون في متناول العلماء والباحثين من رواد المسجد من وطنيين ووافدين. وإذا كان المسجد والمدرسة لايخلوان من مكتبة فإن حجم هذه المكتبة—بساطة أو ضخامة—إنما يتأثر إلى حد كبير بمقدار الوقف-صغَراً وكبَراً-الذى يوقف على هذا المسجد أو ذاك(١).

ويشير إلى شئ من هذا الأستاذ عواد فيقول:«لانظن أن مدرسة من المدارس القديمة في العصر العباسى، أو مسجداً جامعاً، أو غير ذلك من معاهد العلم ومناهل المعرفة كانت تخلو من خزانة كتب، بل إن بعضها كان ذا خزائن جسيمه تحفل بأمهات الأسفار وأعيان التآليف. إلا أن أغلب أخبار تلك الخزائن العامة قد ضاع بضياع الكتب ذاتها، أو أنه مما لم يُعن المؤرخون بتدوينه»(٢) .
مراعين-بقدر الإمكان-الترتيب الزمنى لكل مكتبة:

١ــ مكتبة مشهد أبي حنيفة:

يشير الأستاذ عواد إلى هذه المكتبة بقوله:«مازال هذا المشهد باقياً إلى يومنا هذا في الأعظمية على نحوٍ من ثلاثة أميال من شمالى بغداد، وكان يتصل بهذا المشهد مدرسة جليلة الشأن هى أول مدرسة فتحت في العراق في العصر الإسلامى.... وقد فتحت سنة(٤٥٩هـ/١٠٦٦م)، وكانت في هذه المدرسة خزانة كتب نفيسه، موقوفة على طلبة العلم»(٣)، وكانت تزخر بأمهات الكتب، ككتاب أبى يوسف عبدالسلام القزوينى في تفسير القرآن، وهو كتاب يقع في ٧٠٠ مجلدة، وقيل ٤٠٠ وقيل ٣٠٠،«وكانت هذه الخزانة في زمن أبى الفرج بن الجوزى المتوفى سنة(٥٩٧هـ/١٢٠٠م) حافلة بالكتب الكثيرة، ولما ثبت وقف عليه وعلى غيره من أثبات الخزائن الأخرى»(٤) يقول ابن الجوزى:«ولقد نظرتُ في ثبتٌ الكتب الموقوفة في المدرسة النظامية فإذا به يحتوى على ستة الآف مجلد، وفي ثبت كتب أبى حنيفة، وكتب الحميدى...» الخ(٥).

(١) المصدر السابق ص ١٤٨، ١٥٧
(٢) خزائن الكتب القديمة في العراق ص ١٣٠.
(٣) خزائن الكتب القديمة في العراق ص ١٥١ ــ ١٥٢.
(٤) المصدر السابق ص ١٥٢ــ ١٥٣ .
(٥) صيد الخاطر ص ٣٦٧ .

ولمكتبة مشهد بن حنيفة مشرفوها وخزانها الذين يتعهدونها و يُعْنَوْن بأمرها،«وفي التوقيع الذى كتب سنة(٦٠٤/١٢٠٧) لضياء الدين أبى الفضل أحمد بن مسعود التركستانى الحنفى نصٌ صريح على مانيط به من أمر خزانة هذه المكتبة... وقد أورد هذا التوقيع بكماله ابن الساعى.... قال:«وليثبت مابخزانة الكتب من المجلدات وغيرها، معارضاً ذلك بفهرسته، متطلباً ماعساه قد شذ منها، وليأمر خازنها ـبعد استصلاحه ـبمراعاتها ونفضها في كل وقت، ومرمة شعثها، وألا يُخرج شيئا منها إلاَّ إلى ذى أمانة، مستظهراً بالرهن عند ذلك»»(١).

و ينسب صاحب«تاريخ جامع الإمام الأعظم»(٢) إلى الحاج خليفه المتوفى سنة(١٠٦٧هـ/١٦٥٦م) قوله: إنه وقف في خزانة مشهد الإمام أبى حنيفة على نسخة من«الكشاف عن حقائق التنزيل» للزمخشرى بخط مؤلفها، وهذه النسخة لايوجد غيرها في العالم.

هذا و بالإضافة إلى دلالة هذا النص الأخير ـعلى ضآلتها ـفي جواز الأيكون المغول قد مسوا خزانة هذا المشهد فإننا لم نعثر على نصوص صريحة تشير إلى أن خزانة هذا المشهد قد استهدفت لخطر المغول. أما الخزانة التى تُرى اليوم فإن الأستاذ عواد يصف المخطوط منها بأنه تغلب عليه الحداثة (٣)، ومن ثم فهو لايدل على سلامة خزانة المشهد من نهب المغول .

المكتبة القادرية:

وشهد القرن الخامس الهجرى(الحادى عشر الميلادى) ميلاد مدرسة علمية جديدة شرق بغداد بباب الأزج، وكان مشيد هذه المدرسة هو الحافظ قاضى قضاة بغداد أبو سعيد المبارك المخرمى، وكان من تلامذة هذه المدرسة صاحب هذه المكتبة الشيخ عبد القادر الكيلانى المتوفى سنة ٥٦١هـ، ولهذا فإن الشيخ عبد القادر حفظ لهذه المدرسة جيلها عليه، فأقام بها خزانة كتب جمع فيها مؤلفاته وكتبا كثيرة من أنفس الكتب، ومخطوطات عظيمة من أندر المخطوطات. و يذكر الأستاذ إبراهيم الدروبى أنه وجد في إحدى مكتبات مصر مخطوطة لكتاب«تاريخ الخطيب البغدادى» كتب على ظهرها مانصه:«تملكته بالشراء الشرعى ببغداد، وأنا الفقير إليه عزَّ شأنه عبد القادر الكيلانى سنة ٥٢٥هـ..»(٤).

---

(١) خزائن الكتب القديمة ص ١٥١ـ ١٥٢، نقلا عن ابن الساعى

(٢) الشيخ هاشم الأعظمى ، ص ١٩١.

(٣) خزائن الكتب القديمة ص ١٥٤.

(٤) مقال للأستاذ إبراهيم الدروبى في مجلة المجمع العلمى العراق مجلد ٦ ص ٧٩.

ولما مات الشيخ عبد القادر-عليه رحمة الله-آلت رئاسة المكتبة لابنه الفتح عبد الوهاب الذى عمل على تزويدها بكل نفيس من مؤلفاته وغيرها، كما أسهمت الأسرة الكيلانية كلها على امتداد الزمن في تزويد هذه المكتبة بروائع العقول، ونتاج القرائح. غير أن المكتبة تعرضت للتمزيق«لأول مرة سنة(٦١٨هـ/١٢٢١م) من قبل وزارة بن يونس ، كما روى ذلك المؤرخون كالحافظ الذهبي، وابن العماد الحنبلي وغيرهما، إلا أنها ظهرت بعد ذلك بخمس عشرة سنة، ورد إليها ماتبقى في حيازة الأسرة الكيلانية هنا وهناك، واستمرت في الاتساع حتى زمن سقوط بغداد في يد التتار سنة ٦٥٦هـ، وعندها وقعت فريسة للنهب والتخريب اللذين امتدا أيضاً إلى المدرسة نفسها..»(١).

وعموماً ليس هناك مايحول بين هذه المكتبة وبين التتار سيا إن صح ماأُقدره من أن موقعها كان قريباً من ميدان القتال.

مكتبة المسجد الزيدى:

يحتل«الجامع القبلانى» القائم اليوم في الجانب الشرقي من بغداد-على الأرجح-مكان الجامع الزيدى، الذى تذكر المصادر أنه كان بدرب دينار الصغير. أما مكتبة هذا المسجد فقد كانت من وقف الشريف الزيدى(ت ٥٧٥هـ)، وبسببها نال شهرة كبيرة وذكراً عطراً،«وقصة تأسيسه لها أن عضد الدين محمد بن رئيس الرؤساء-وكان وزيراً للخليفة المستضئ بأمر الله-عزل عن الوزارة مرة ثم أُعيد إليها، فكتب إلى الخليفة المذكور رقعة يقول فيها:إني نذرتُ إن عدت إلى الوزارة بعثت إلى الشريف الزيدى بألف دينار..»، فأرسل الخليفة إليه يقول:«وأنا أيضاً أحمل إليه الف دينار»، فحملت الدنانير الألفان إليه، فلم يتصرف بها، بل اشترى داراً بدرب دينار الصغير بناها مسجداً، واشترى بالباقي كتباً، ووقفها في المسجد لينتفع الناس بها»(٢).

وفوق هذا فقد وقف الشريف الزيدى كتبه كلها على هذه المكتبة كما أسلفنا، مختطاً بذلك طريقاً سار معه فيه أبو الخير صبيح بن عبد الله الحبشى(ت ٥٨٤هـ) فوقف كتباً على هذه الخزانة، وتابعهما عمر بن محمد بن عبد الله الدمشقي(ت ٥٧٤هـ) الذى كان صديقاً للشريف الزيدى، وعاهده أن يُرسل كتبه إلى بغداد وقفاً في هذه المكتبة، وقد وفّى بوعده، ولكنها عند وصولها بغداد وجدت الشريف الزيدى قد مات، فتسلمها خازن مكتبة المسجد«صبيح» ووضعها فيها. كما اقتفى ياقوت الحموى أثرهم، فوقف كتبه على هذه الخزانة،

(١) المصدر السابق ص ١٩٠.

(٢) ياقوت الحموى-معجم الأدباء جـ ١ ص ١٩٣؛ خزائن الكتب القديمة ص ١٥٤-١٥٥.

وأرسلها مع ابن الأثير الذى حملها إلى هناك، وكانت مكتبة ياقوت من أنفس الخزائن، وأحفلها بالكتب الثمينة.(١) «فهذه الخزائن المختلفة قد اجتمعت في صعيد واحد، وحصل من اجتماعها خزانة كتب كبيرة أفاد منها الناس فوائد كثيرة، ولبثت منهلاً عذباً لطلاب العلم مدة مديدة. فقد ذكر ابن عنبة هذه الخزانة بما يؤخذ منه أنها كانت لم تزل حافلة في زمانه، أى في المائة الثامنة وأوائل المائة التاسعة للهجرة.»(٢).

فهذه مكتبة أخرى تدل نصوصها على أنها عاشت خلال قرون ثلاثة: منذ السادس حتى أوائل التاسع للهجرة؛ وهذا بدوره يدلنا على أن التغير السياسى الذى طرأ على بغداد، والمتمثل في الغزو المغولى لم يمسها بسوء، فقد بقيت بعد الغزو كما كانت قبله، ولم يبتلع نهر دجلة شيئاً من كتبها.

مكتبة النظامية:

كانت «نظامية بغداد» أولى المدارس التى أنشأها نظام الملك، حسن بن اسحاق وزير السلطان ملكشاه السلجوقى (ت ٤٨٥هـ/١٠٩٢م) على شاطئ دجلة في بغداد، وقد بدأ بعمارتها سنة ٤٥٧هـ، وفرغ منها سنة ٤٥٩هـ، وبقيت هذه المدرسة تزخر بالنشاط العلمى لبضعة قرون. وإلى تاريخ إنشاء مكتبتها يشير ابن الأثير: «وفيها-سنة ٥٨٩هـ-أمر الخليفة الناصر لدين الله بعمارة خزانة الكتب بالمدرسة النظامية ببغداد، ونقل إليها من الكتب النفيسة ألوفاً لايوجد مثلها..»(٣).

وقد عُنى نظام الملك بمكتبتها عناية خاصة، فزودها بأصناف التآليف، التى كانت تترى إليها، إما بالشراء، أو الوقف، أو الإهداء.(٤) فالمؤرخ البغدادى الشهير محب الدين بن النجار كان أحد الذين وقفوا كتبهم عليها، يرشدنا إلى ذلك ابن كثير حين يقول: «ووقف خزانتين من الكتب بالنظامية تساوى ألف دينار، فأمضى ذلك الخليفة المستعصم..»(٥)، وتوفى ابن النجار سنة (٦٤٣/١٢٤٥م). وممن أهدى إلى هذه المكتبة كتباً نفيسة عبد السلام القزوينى (ت ٤٨٨/١٠٩٥م)، فقد جاء في طبقات الشافعية الكبرى عنه: «وأهدى إلى نظام الملك أربعة أشياء لم يكن لأحد منها: غريب الحديث لإبراهيم الحربى في عشر مجلدات فوقفه

---

(١) خزائن الكتب القديمة في العراق ص ١٥٦.

(٢) خزائن الكتب القديمة ص ١٥٧.

(٣) الكامل في التاريخ ١٢ : ٤٣.

(٤) خزائن الكتب القديمة ١٤٥-١٤٧؛ وتاريخ التربية الإسلامية ١٥٧، فيليب جـ ١ ص ١٠٢.

(٥) البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٦٩.

نظام الملك بدار الكتب ببغداد، ومنها شعر الكميت بن زيد... في ثلاثة عشر مجلداً، ومنها عهد القاضي عبد الجبار... والرابع مصحف بخط بعض الكتاب المجودين بالخط الواضح»(١) ومن ثم غدت هذه المكتبة من أعظم مكتبات المدارس المعاصرة للنظامية، إذ أحتوت-على مايذكر ابن الجوزى-على نحو من ستة الآف مجلد. قال:«ولقد نظرت في ثبت الكتب الموقوفة في المدرسة النظامية فإذا به يحتوى على نحو ستة الآف مجلد.»(٢). بق أن نسأل-على ماجرينا عليه في هذا البحث-ماهو مصير هذه المكتبة العظيمة؟ قال في جواب ذلك الأستاذ عواد:«إن هذه الخزانة الحافلة التى ازدانت بها المدرسة النظامية قد تشتت شملها وتبعثرت كتبها بتوالى الأحداث عليها، فلسنا نجد اليوم في خزائن الكتب المفهرسة شيئاً من بقايا كتب هذه الخزانة المندثرة»(٣). وقد يكون تعليل ذلك أن نقول: ربما ذهبت في غزو تيمورلنك لبغداد.

مكتبة المشهد الكاظمى:

يذكر الأستاذ حسين على محفوظ أن أول مدرسة أُسست في الكاظمية هى مدرسة مشهد الكاظم رضى الله عنه، وهى من آثار الخليفة العباسى الناصر لدين الله، وبُدئ بقراءة مسند الإمام أحمد بن حنبل في هذا المشهد سنة ٦٠٨هـ بأمر الناصر، على العلاّمة الفقيه صفىّ الدين محمد بن معد الموسوى. وقد وقف جماعة من العلماء كتبهم على هذا المشهد؛ وكانت مكتبته تُسمى:«خزانة مشهد الكاظم»(٤).

عاشت هذه المكتبة في العهدين: العباسى المتأخر، والمغول الإيلخانيين، يُستدل على ذلك من اطلاع السيد النقيب رضى الدين بن طاووس(ت ٦٦٤هـ) فيها على نسخة عتيقة من كتاب«الملاحم» للبطائنى؛ كما اطلع على بعض كتبها أيضاً غياث الدين عبد الكريم بن طاووس(ت٦٩٣هـ)؛ كما يستدل على بقائها في عهد المغول مما ذكر من أنّ هبة الله الموسوى قد نقل:«بعض أعلاقها النفيسة في كتابه:«المجموع الرائق في أزهار الحدائق»، وذلك سنة ٧٠٣هـ(٥). فهذه إذا مكتبة أخرى اجتازت محنة بغداد دون أن يصيبها شيئ من التلف أو الدمار، ولعلّ من أسباب ذلك مانراه من بُعدها عن ميادين المعارك والقتال.

---

(١) السبكى ٣/٢٣٠، وأنظر ابن الجوزى - المنتظم جـ ٩ ص ٦٦.

(٢) صيد الخاط ص ٣٦٦.

(٣) خزائن الكتب القديمة ص ١٥٠ — ١٥١.

(٤) خزائن كتب الكاظمية قديماً وحديثاً ص ٣ .

(٥) نفس المرجع والصفحة.

مكتبة المدرسة البشيرية:

المدرسة البشيرية مؤسسة عباسية، أنشأها الخليفة العباسى المستعصم بالله سنة(٦٥٣/١٢٥٥)، تخليداً لذكرى حظيته«باب بشير»؛ وكانت تقع ظاهر محلة شارع ابن رزق الله بالجانب الغربى من بغداد. أما أخبارنا عن مكتبتها فقليلة جداً، ولكن النصوص القليلة تتحدث عن أن صاحبتها أوقفت عليها خزانة كتب لطلاب العلم؛ غير أن أيدى الزمان-فيما يبدو-قد عبثت بهذه المكتبة، إذ لم يصلنا الآن منها«إلاَّ المجلد الخامس من تفسير القرآن الكريم المسمى«العيون والنكت» للماوردى المتوفى سنة(٤٥٠/١٠٨٥). وهذا المجلد محفوظ الآن في خزانة كتب آل باشى أعيان العباسى في البصرة..». ومما جاء في وقفية المكتبة المذكورة:«وأمرتْ[باب بشير]أن تكون بالمدرسة الميمونة التى أمرتْ بإنشائها بظاهر محلة شارع ابن رزق الله بالجانب الغربى من مدينة السلام، وأن يعار برهن حافظ للقيمة، فمن بدل بذلك أو قصَّر في حفظه مما يتولاه أو يستعيره غيرهما، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين... وكتب في شهر رمضان المبارك من سنة اثنتين وخمسين وستمائة، وصلى الله على سيدنا محمد النبى وآله...»(١).

أما مصير هذه المكتبة فليس بأيدينا عنه شيئاً، إذ لم أجد نصا يتحدث عنها بعد سنة ٦٥٣هـ، فمن الجائز إذن أنها ذهبت فيما ذهب، ومن الجائز أيضاً أنها بقيتْ في زمن المغول ولكن أهملها المؤرخون لقلة شأنها بعد وفاة صاحبتها.

مكتبة مسجد قمرية:

أنشأ هذا المسجد الإمام الناصر لدين الله بالجانب الغربى من بغداد سنة ٦١٦هـ، وزوده بمكتبة عامرة، يشير إليها نص ابن الفوطى التالى:«وفي شعبان تكامل بناء المسجد المستجد المعروف بقمرية بالجانب الغربى، على شاطئ دجلة المقابل للرباط البسطامى، ونقل إليه الفرش والآلات... وجعل في هذا المسجد خزانة للكتب، وحمل إليها كتبٌ كثيرة»(٢).

على أننا لانعرف شيئاً عن مصير هذه المكتبة عن طريق القطع واليقين، ولكننا نستنتج بقاءها على عهد المغول من نص ورد في ترجمة«على بن أبى الجيش» المتوفى سنة(٧٤٢هـ)، فقد جاء في هذا النص أن الشيخ هذا رُتب في مسجد قمرية ليعلم ثلاثين صبياً القرآن الكريم، كما رتب معيد يحفظهم التلاقين، بالإضافة إلى محدث يجلس للحديث كل يوم اثنين

---

(١) خزائن الكتب القديمة في العراق ص ١٧٢ ــ ١٧٣.

(٢) الحوادث الجامعة ص ٤، وتلخيص مجمع الآداب ص ٢٣٠.

وخميس»(١)؛ فقد يدل وجود هذه الحركة العلمية فيه، وسلامته من تخريب المغول على أن مكتبته ظلت قائمة، وإلاّ فلم يبقَ المسجد معهداً للعلم وتُخرب مكتبته؟؟.

مكتبة رباط المأمونية:

يقع هذا الرباط في محلة المأمونية التى تشمل اليوم محلات القشل والدهانه والهيتاويين وصبابيغ الآل في الجانب الشرقى من بغداد(٢) وكانت له خزانة يبدو أنها عامرة فيما تشير بعض النصوص، فقد احتوت هذه المكتبة-فيما احتوت عليه-على«كتاب الفنون»لابن عقيل الحنبلى(٣) وقال ابن الجوزى في عدد أجزاء هذاالكتاب:«هو مائتا مجلدة، جمعه طول عمره، واختصر منه جدى عشر مجلدات فرقها في تصانيفه، وقد طالعتُ منه في بغداد في وقف المأمونية نحوا من سبعين»(٤)

كذلك ذكر ياقوت (ت٦٢٦هـ) أن محب الدين بن النجار حدّثه أن الوجيه النحوى حضر بدار كتب رباط المأمونية وخازنها يومئذ أحمد بن هبة الله،«فجرى حديث المعرى، فذمه الخازن وقال: كان عندى في الخزانة كتاب من تصانيفه فغسلته»، وهو كتاب:«الفصول والغايات في معارضة السور والآيات». فقال له الوجيه النحوى: أخطأت في غسله. ودارت بعد ذلك محاورة لطيفه انتهت باقتناع خازن مكتبه رباط المأمونية بخطأ تصرفه(٥).

ففى هذه النصوص مايدل على وجود مكتبة عامرة في هذا الرباط، غير أننا لانعرف من تاريخها إلاّ أنها أنشئت مع الباط في القرن السادس الهجرى، وظلت عامرة في القرن السابع، ثم انقطعت أخبارها بعد ذلك، وليس لدينا مايحملنا على القول بتدميرها على يد المغول، أو زوالها بصروف الدهر وتقلبات الأزمان.

مكتبة رباط الحريم الطاهرى:

أنشأ هذه المكتبة-مع الرباط-الخليفة الناصر لدين الله سنة ٥٨٩هـ، وكان موضع الرباط قصور عبد الحسين جلبى وما حولها على دجلة بين الكاظمية وبغداد(٦). يشير إلى هذا ابن

(١) ناجى معروف: تاريخ علماء المستنصرين ص ٢٣٠.
(٢) العراق في العهد السلجوقى ص ٣٨٧.
(٣) خزائن الكتب القديمة ص ١٦٠.
(٤) سبط ابن الجوزى ـــ مرآة الزمان ٥١/٨.
(٥) معجم الأدباء جـ ٦ ص ٢٣٥ ـــ ٢٣٦ .
(٦) د . جواد ـــ سومر مج ١٠ سنة ١٩٥٤ م.

الأثير حين يقول: «.. وفيها-في ربيع الأول- فرغ من عمارة الرباط الذى أمر بإنشائه الخليفة أيضاً بالحريم الطاهرى غربى بغداد على دجله، وهو من أحسن الربط، ونقل إليه كتبا كثيرة»(١). وهو كسابقه لانعرف من تاريخه إلا سنة إنشائه هذه ولا شئ سواها بعد ذلك.

مكتبة المستنصرية:

لم تحظ مؤسسة ثقافية عباسية في العراق-فيا أحسب- كما حظيت المدرسة المستنصرية من الدراسة والبحث والتدقيق، ولهذا فلن أعرض لها بالتفصيل، لأن كل شئ عنها أصبح الآن معلوما لايحتاج إلى مرشد أو دليل.

أما مكتبتها فيراها الأستاذ ناجى معروف «القاعات الكبيرة الواقعة في القسم الشرقى من عمارة مدرسة المستنصرية، يفصل بينها وبين مدرسة الفقه دهليز طويل عال، وهذه القاعات ترتفع بارتفاع الطابقين، ولم تكن فيها نوافذ، بل كان فيها كوى سقفية لاتزال عامرة تكفى للإضاءة والتهوية»(٢).

وكما هو معلوم فإن المدرسة المستنصرية كانت قد افتتحت نحو سنة(٦٣٠/١٢٣٢)، وفي يوم افتتاحها نُقل-بأمر المستنصر بالله-من الربعات الشريفة ومختلف كتب الأدب والدين ماحمله مائة وستون حمالاً، وجعل في خزانة كتبها. وقد قدر ابن عنبه العلوى (٣) ماحمل في ذلك اليوم إلى الخزانة بنحو ثمانين ألف مجلد.

عند ذلك دعى كلٌ من شيخ رباط الحريم وابن المستنصر ضياء الدين إلى «جرد» الكتب ومراجعتها، ثم إثباتها في فهارس، فأحصياها وفهرساها على نسق دقيق جعل مهمة المناول تتم في يُسر وسهولة(٤). وقد ذكر الأستاذ طرازى أن كل فن من العلوم انفرد بمكان خاص من المكتبة، وأن فهارس الكتب كانت عدة مجلدات ضخام(٥).

ويبدو أن المستنصر كان قد وضع لمكتبة مدرسته نظاماً صارماً دقيقا، يحفظ كتبها من الضياع، وهو نظام يكاد يكون طبق الأصل لما يجرى عليه العمل اليوم في معظم المكتبات. نستلهم ذلك من عدة نصوص، منها ماجاء عن زيارة المستعصم لها: «وقصد المدرسة المستنصرية يوم الجمعة سابع شعبان[٦٤٠ هـ] ومعه الشيخ شمس الدين على بن النيار،

---

(١) الكامل في التاريخ جـ ١٢ ص ٤٣.

(٢) تاريخ علماء المستنصرية ص ٢٧٠.

(٣) عمدة الطالب ص ١٩٥.

(٤) الحوادث الجامعة ص ٥٤ .

(٥) فيليب طرازى: خزائن الكتب العربية في الخافقين ص ١٠٣.

واعتبر خزانة الكتب التى بها، وأنكر عدم ترتيبها، ووكل بالبوّاب يومين ثم أفرج عنهم..»(١) ولكن النص التالى أدق تصوير لتنظيمات هذه المكتبة:«وفيها—٦٤٥هـ—أنهى خازن المدرسة المستنصرية: أنه شاهد ختم الخزانة متغيراً والقفل بحاله، فاعتبر مافيها من الرهون والعين، فشذ منها شيئ، ومن المال ثلثمائه دينار، فأنهى ذلك إلى الخليفة، فأمر بإلزام الفقهاء والحاشية برمى تراب، ففعلوا ذلك ثلاثة أيام فلم يجدوا شيئا، فتقدم بتقسيط ذلك على البواب بالخزانة والفراشين على قدر أحوالهم، فاستوفى ذلك منهم، ورتب عوضهم».(٢)

ويذكر الأستاذ ناجى معروف أن هذه المكتبة كانت في القرن السابع والثامن الهجريين أشهر دور العلم في العالم، ويُلاحظ على هذه المكتبة ومكتبة الرصد أنها إذا كانا أعظم مكتبتين في البلاد كما يقول الذهبى، وأن مكتبة الرصد كانت تحتوى على ٤٠٠ ألف مجلد، وهى متأخرة في وجودها عن المستنصرية بربع قرن فلا بد أن تكون مكتبة المستنصرية من الضخامة على شيئ عظيم(٣).

ومن ترجمة بعض خُزّانها يتبين أنها—بالرغم مما أصابها على يد المغول—ظلت مزدهرة في العهد الإيلخانى يؤمها الناس. فقد قال ابن الفوطى في ترجمة قوام الدين محمد بن على العكيك أنه«قدم بغداد وأنابها، وكان يتردد على خزانة الكتب بالمدرسة المستنصرية أيام كنتُ مشرفاً على الخازن جمال الدين ياقوت المستعصمى..»(٤) وياقوت هذا كانت وفاته سنة(٦٩٨/١٢٩٨).

غير أن ابن عنبة يتحدث عن مصير هذه المكتبة العظيمة فيقول—بعد أن يورد عدد المجلدات التى زودها المستنصر بها:«والظاهر أنه لم يبق منها شيئ والله الباقى..»(٥). ويعلق على هذه العبارة الأستاذ عواد بقوله:«فيكون زوال هذه الخزانة قد حصل قبل زمان ابن عنبة المذكور الذى توفى سنة(٨٢٨هـ/١٤٢٤م)(٦).

---

(١) الحوادث الجامعة ص ١٧٠— ١٧١.
(٢) المصدر نفسه ص ٢٢٣ .
(٣) تاريخ علماء المستنصرية ص ٢٧١.
(٤) تلخيص مجمع الآداب جـ ٢ ص .
(٥) عمدة الطالب ١٩٥.
(٦) خزائن الكتب القديمة ١٦٣.

ويؤكد هذا المعنى في موضع آخر فيقول: «ولكن نكبات مختلفة انتابتها فزعزت أركانها؛ وكان في طليعة تلك الزرايا حادثة استيلاء المغول على بغداد سنة(١٢٥٨/٦٥٦)، وتدميرهم معالم العلم والعمران فيها... فخزانة كتب المستنصرية كانت منذ بداية القرن التاسع للهجرة خالية خاوية، إذ تشتتت كتبها بالحرق والنهب والتمزيق والتفريق[والنقل]، والذى سلم منها لايعلم اليوم مصيره ماخلا كتاباً واحداً وهو«ربيع الأبرار» للزمخشرى، فإن النسخة المستنصرية منه هى اليوم في الخزانة الوطنية بباريس..»(١).

ويرى الأستاذ فيليب طرازى نفس هذا الرأى، بل يُضيف إلى مكتبة المستنصرية: «دار الحكمة» و«النظامية»، و«المكتبة الخليفية» وغيرها من مكتبات بغداد(٢).

والراجح عندى أن هذا القول قريبٌ من الحقيقة إن كان المراد منه أن الغزو المغولىّ قد أضر بهذه المكتبات، وأن السوقة من الغزاة-إبّان الثورة-قد نهبوا بعض الكتب منها وأحرقوها أو أغرقوها، كما أن الطوسى نقل كثيرا منها إلى مكتبته«بالرصد». وبذلك يصبح الغزو المغولى لبغداد عاملاً مؤثرا في زوال هذه المكتبات، وليس العامل الوحيد .

---

(١) كوركيس عواد: خزائن الكتب القديمة ص ١٦٣ وما بعدها .

(٢) أنظر: خزائن الكتب القديمة في الخافقين ص ١٠٣ وما بعدها .

خاتمة :(نتيجة البحث)

يهدف هذا البحث ــ كما أبنا في المقدمة ــ إلى كشف حقيقة موقف المغول من مكتبات بغداد، ومدى الأثر الحقيق الذى تركته بصمات المغول الغازين على تلك المكتبات؛ وسبيلنا إلى حق مظنون أو مرجح أو متيقن في ذلك ينشعب إلى شعبتين:

الأولى: تتبع المكتبات التى شهدت غزو بغداد، والمقارنة بين الحال التى كانت عليها عند الغزو ومآآلت اليه بعده.

الثانية: استقراء النصوص ـ قديمها وحديثها ـ التى تحدثت عن أثر هذا الغزو، في محاولة لاستنتاج مايُعقل من دلالتها.

ففى الاتجاه الأول هدتنا دراستنا للمكتبات التى نشأت قبل الغزو ـ ومنها مكتبات الدار الخليفية، ومكتبات الأشخاص، والمكتبات العامة ـ هدتنا دراستنا هذه إلى أن بعض هذه المكتبات قد زال من الوجود بالفعل، وأقوى أسباب زواله الغزو المغولى؛ وهذا يتمثل أول مايتمثل في مكتبات الدار الخليفية التى نقل بعضُها، وأُحرق وأُغرق بعضها الآخر؛ كما يتمثل في بعض المكتبات العامة التى كانت قائمة إلى غزو بغداد أو قبيله ثم انقطع ذكرها من المصادر؛ وهذه الأخيرة لانستطيع الجزم بأنها ذهبت بفعل المغول، لكننا نرجح ذلك ترجيحاً لعدم وجود تفسير آخر أقرب إلى العقل من ذلك. ومن أمثلة هذه المكتبات: المكتبة القادرية ومكتبة المدرسة البشيرية، ومكتبة رباط المأمونية، ومكتبة رباط الحريم الطاهرى، والمكتبة النظامية. أما مكتبة المستنصرية فالأدلة على بقائها خلال العهد المغولى، وسلامتها من تدميرهم أقوى من الأدلة على هذا التدمير؛ لكننا لانشك في أنها أصيبت ببعض التلف من حرق وغرق، كما نقل بعضها إلى مراغه، ولكن ذلك كله في حدود لم تحل بينها وبين الحياة في عهد المغول الإيلخانيين.

وفي الاتجاه الثانى نود أولا أن نذكر دلالات النصوص، ثم نبدى رأينا في هذه الدلالات. وفي هذا الصدد تكاد تجمع النصوصُ-قديمُها وحديثُها-على وصف حال المكتبات العام منها والخاص عند دخول المغول بغداد بما يلى:

عمد المغول-انتقاماً مما فعله المسلمون في أول الفتح العربى بكتب الفرس وعلومهم-إلى جميع مكتبات بغداد العامة والخاصة: مكتبات الخلفاء، ومكتبات الأشخاص، مكتبات المساجد والربط ومكتبات المدارس فأبادوها إبادة كاملة.

بعضها بالحرق، وكثير منها نقل إلى مراغه، ومعظمها أمر به هولاكو فألقى في دجلة فانسد كالجسر المعقود، فصارت الناس من جيش هولاكو وغيره تعبر من شاطئ إلى شاطئ على أكداس الكتب المخطوطة، وتغير لون الماء بمداد الكتب إلى السواد؛ كما ابتنى هولاكو بكتب أخرى اسطبلات الخيول، وطوالات المعالف بدلا من الطين واللبن؛ فذهبت بذلك معالم هذه المكتبات، وعفّت آثارها.(١).

هذا ماتقول به النصوص وتدل عليه: تدمير كامل وخرابٌ شامل لجميع مكتبات بغداد، وردم لنهر دجلة بالكتب، وبناء لاسطبلات الخيول بها. إنَّ وقوع شيئ كهذا يُعدُّ-في تصورى-أمراً ظاهر الاستحالة، ولا يمكن التسليم به-عقلا- كأمر قد حدث بالفعل. وذلك لأسباب كثيرة أهمها مايلى:

١- هدتنا المقارنة التى أجريناها على مكتبات العصر العباسى الأخير إلى أن بعضها قد عاش حتى تجاوز العهد المغولى. ومنها: مكتبة مشهد أبى حنيفة-مكتبة المسجد الزيدى-مكتبة المشهد الكاظمى-مكتبة رضى الدين طاووس-مكتبة غياث الدين طاووس-مكتبة ابن العلقمى-مكتبة المستنصرية.
٢- معظم المكتبات التى انقطع ذكرها، أو رجحنا خرابها في عهد المغول كانت قريبة من ميدان القتال إبان الغزو، ولهذا أصابها الدمار عرضاً كما أصاب غيرها من مظاهر العمران. وليس ذلك انتقاماً كما تذكر بعض هذه النصوص، ولا عن تدبير من المغول سابق.
٣- لم تعرف الدنيا وقت الغزو المغولى الآلة الكاتبة أو الطابعة، ولهذا فحتى لو سلّمنا جدلاً بأن

---

(١) ابن خلدون ١١٠٦/١٣-القلقشندى ٤٦٦/١-فيليب طرازى ١٠٧/١، ١٠٨-كوركيس عواد ص ٣٣، ١٠٢-أحمد أمين ٦٤/٢، ٦٥-سليمان الصائغ ١١٧/٢-جرجى زيدان. تاريخ آداب اللغة العربية ١٢١/٣، فؤاد عبد المعطى الصياد: المغول في التاريخ ص ١٨٦-براون، ترجمة الشواربى تاريخ الأدب الفارسى ص ٥٨٦ وغيرهم.

جميع مكتبات بغداد أُغرقت في دجلة في ذلك الوقت لاستحال تصور سدّه بها حتى تصبح وكأنها جسر معقود؛ إلاَّ أن يكون نهر دجلة قد اتسع الآن—وكان قبل ذلك أُخدوداً أو جدولاً—، وهذا مالم يقم عليه دليل.

٤-وحتى لو افترضنا أن كتب بغداد القرن السابع الهجرى كانت ككتب بغداد القرن الرابع عشر ضخامة، ولم يحرق منها شيئ أو ينقل، بل حُملت جميعُها إلى النهر فإن تيار النهر لابد جارفها، و يستحيل—على هذا—أن تثبت جسراً للمرور.

والذى أراه أقرب إلى الحق من كل هذا أن بعض مكتبات بغداد—العام منها والخاص—قد استهدف للحريق والغرق والنقل كعمل غير مسؤول يُصاحب الثورات العنيفة عادة دون تخطيط متعمد لإفناء المعرفة، ودون انتقام لشيء سابق، أو ثأر لفرس أو رومان.

وأن الذى تعرض لهذا الخراب من المكتبات إنما كان قريباً لميدان القتال بدليل سلامة بعض المكتبات النائية؛ وما تعرض للخراب لم يدمر كله ماخلا الخزانة الخليفية؛ بدليل استمرار المكتبة المستنصرية؛ وأن بعض المكتبات العامة والخاصة لم تمس بسوء—وقد فرغتُ—وشيكاً من ذكر بعضها—وما عدا هذا—في رأيي—مبالغة وتهويل.

ولعلَّ النص التالى أقرب مايكون إلى الصواب في تصوير إحساس المثقفين بعد غزو بغداد:

«وقد شعر علماء الغزو المغولى بنقص الكتب في أيامهم، فقال السيوطى—بعد ذكر حكاية الصاحب بن عبّاد لما دعى إلى الذهاب إلى بعض الملوك فاعتذر بمشقة الانتقال، لأنه يحتاج إلى ستين جملاً ينقل عليها كتب اللغة التى كانت عنده—[قال السيوطى بعد ذلك]: «وقد ذهب جل الكتب في الفتن الكائنة بين التتر وغيرهم، بحيث أن الكتب الموجودة الآن في اللغة من تصانيف المتقدمين والمتأخرين لاتجيئ حمل جمل واحد». وهذا غلوٌّ من السيوطى، لكنه يدل على مقدار شعور العلماء بضياع الكتب بالفتن...»(١). والله وليُّ التوفيق.

(١) أنظر: جرجى زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية جـ ٣ ص ١٢٣.